ISSN: 2090 – 0449 Online
Universal Impact Factor (UIF), 2015.
Impact Factor for Arabic Scientific Journals, 2016.

المقاومة الثقافية للأمير عبد القادر الجزائري
التعليم نموذجًا

أحمد بن داود

أستاذ مساعد التاريخ الحديث والمعاصر

رئيس شعبة التاريخ – قسم التاريخ والآثار

جامعة أبي بكر بلقايد – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

يدور موضوع هذا المقال حول مقاومة الأمير عبد القادر الثقافية من خلال التعليم، ذلك أن الأمير خاص مقاومة متعددة الجوانب: عسكرية، سياسية ثم ثقافية، ومن خلال التعليم كان يحاول تكوين نخبة واعية قادرة على استيعاب طبيعة مشروعه الحضاري الهادف إلى النهوض في الجزائر وتأسيس دولة عصرية قادرة على مواجهة الغزو الاستعماري. لتحقيق هذا الهدف أبدى الأمير اهتمامًا متزايدًا بالتعليم، إذ عين في حكومته ناظرًا للأوقاف وهو الحاج الطاهر أبو زيد وكلفه بإدارة الأوقاف والتعليم، وقسم المعلمين إلى درجات وخصص لهم مرتبات شهرية، إضافة على تخصيص مساعدات لطلاب العلم وشيوخ الزوايا وجعل التعليم مجانيًا مع التكفل التام بالطلبة. إن النشاط التعليمي للأمير وطابعه والنضالي لم ينته بتمكن الاستعمار الفرنسي من القضاء على مقاومته بل واصل مجهوده التعليمي وذلك حيث ما ذهب، غذ كان يقدم دروسًا لأصحابه وأفراد عائلته حتى وهو في الأسر وهو قصر أمبواز في فرنسا. وبعد إطلاق سراحه واصل تقديم هذه الدروس في بروسة بتركيا ثم في دمشق بعد أن استقر بها، إذ كان يدرس في المسجد الأموي والمدرسة الشرفية المعروفة بدار الحديث النووية. لقد وفر الأمير كل الشروط لإنجاح تجربته التعليمية ونقل المعركة ضد الاستعمار الفرنسي بذلك إلى الساحة الثقافية والفكرية، لهذا اهتم بتأسيس مكتبة عامرة للطالبة والمعلمين، إذ كان مولعًا لاقتناء والكتب والمخطوطات والحث على العناية بها، لهذا عندما هاجم الجيش الفرنسي عاصمته المتنقلة "الزمالة" في ١٥ مايو ١٨٤٣م والاستيلاء عليها أصيب الأمير بنوبة من الحزن والأسى وذلك لأن هذه المكتبة كانت بمثابة الذاكرة الجماعية للشعب الجزائري وبالأرشيف الوطني بالمفهوم الحديث والأمير عبد القادر كان يعي ذلك جيدًا.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٤ مارس ٢٠١٤

تاريخ قبول النشر: ١٢ يونيو ٢٠١٤

كلمات مفتاحية:

تاريخ الجزائر الحديث، الاستعمار الفرنسي، المدارس والكتاتيب، التعليم الجزائري، الأمير عبد القادر

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

أحمد بن داود. "المقاومة الثقافية للأمير عبد القادر الجزائري: التعليم نموذجًا".- دورية كان التاريخية.- العدد الرابع والثلاثون: ديسمبر ٢٠١٦. ص٦٤ – ٧٠.

مُقَدِّمَةْ

اهتم كثير من الباحثين والدارسين بتاريخ الأمير عبد القادر ومقاومته للاستعمار الفرنسي، لكن في دراساتهم العديدة ركزوا بالخصوص على الجانبين العسكري والسياسي لهذه المقاومة، حيث أن الأمير "المحارب" أخفى الأمير "العارف"، و"العالم"، و"المدرس". إن هذا التوجه في الدراسات التاريخية حجب عنا مساحات كبيرة من تاريخ الأمير الذي بقدر ما كان عسكريًا وسياسيًا محنكًا كان رجل فكر وعلم، عميق المعرفة في علوم الدين والدنيا، وله آراء في مختلف قضايا عصره الفكرية والمعرفية، لهذا فليس من الغريب أن يفتح جبهات متعددة في مقاومته للاستعمار الفرنسي، إذ إلى جانب مقاومته العسكرية والسياسية مارس مقاومة ثقافية وفكرية عكسها اهتمامه

بالشأن الثقافي أثناء تنظيمه لدولته، وكل ما يرتبط بذلك من تعليم ومكتسبات...، وذلك بغرض تحقيق معالم مشروعه الحضاري التجديدي على أساس أن الأمير كان أحد رموز الحداثة العربية الإسلامية وأحد رجالات النهضة في العالم العربي الإسلامي، لهذا فكثير من التساؤلات تتبادر إلى ذهن الباحث؛ لماذا أعطى الأمير هذه الأهمية للتعليم في إطار هيكلة دولته؟ وما هي مظاهر هذا الاهتمام؟ وكيف سير منظومته التعليمية؟ وما هي طبيعة مجهوداته في مجال حفظ الكتاب وبناء المكتبات؟

أولاً: أسباب وعوامل اهتمام الأمير عبد القادر بالتعليم

في إطار هيكلة دولته وبنائها، سواء في الميدان الاقتصادي أو العسكري أو الإداري أو القضائي أو الثقافي، نال التعليم حظًا وافرًا من اهتمام الأمير وذلك للاعتبارات الآتية:

- التكوين الجاد الذي تلقاه الأمير سواء في زاوية أبيه بالقيطنة، أوفي أرزيو على يد أستاذه أحمد بن طاهر، قاضي المدينة، وولعه الشديد بالدراسة منذ فتوته الأولى. في مذكراته لا يخفي الأمير إعجابه بجو الدراسة داخل الزاوية إذ يقول في هذا الخصوص: "... وأما طلبة القرآن الذين قرأوا القرآن والعلم بقريته المذكورة فلا يحصون كثرة ولا يعدهم عاد... لا يخلو موضع قراءتهم من خمسمائة إلى ستمائة بحيث لا يسمع المار إلا دوي القرآن في كل وقت مع تدوين العلم بأكثر أنواعه بمسجدها ... وكانت فيه نحو السبع مجالس للتدريس ..."[١].
- تقاليد عائلة الأمير العريقة والتي تقوم على تقدير العلم والعلماء، فأبوه محي الدين كان شيخ زاوية ويلقي بها دروسا في الدين والتشريع، وألف كتابًا بعنوان "إرشاد المريدين"[٢] باعتباره كان مقدم الطريقة القادرية التي ورثها عن أبيه الحاج مصطفى بن المختار الراشدي، والذي أخذها بدوره عن الشيخ الزبيدي في مصر.[٣] إن هذه المعطيات تقدم لنا صورة جلية عن الجو الثقافي والديني الذي كان يطبع بيت الشيخ محي الدين والذي كان يعرف توافد العلماء والفقهاء والشيوخ لحضور الندوات الدينية التي كان يحضرها كذلك الطلبة من مختلف جهات البلاد.
- إدراك الأمير عبد القادر أن نجاح مقاومته للاستعمار الفرنسي رهينة بمدى انتشار الوعي القومي بين مختلف فئات المجتمع الجزائري[٤] وتكوين نخبة واعية بمخاطر السياسة الاستعمارية، وخاصةً في الميدان الثقافي، وقادرة على استيعاب كنه وعمق مقاومته التي لم تكن مجرد مواجهة عسكرية وسياسية مع الاستعمار الفرنسي، بل مواجهة حضارية مع الغرب الرأسمالي، الذي تشكل فرنسا أحد قواعده الهامة، وذلك بأبعادها العلمية والتقنية والعسكرية.[٥] فالأمير عبد القادر الذي بفعل إدراكه لأهداف السياسة الاستعمارية في ميدان التعليم والقائمة على مراقبة التعليم الديني الحر وعرقلة نشاطه بغرض إفراغ المجتمع من نخبه الدينية والفكرية وتدمير منطق إنتاجها[٦]، كان يريد أن يعطي لمقاومته كل الأدوات والوسائل الكفيلة بتحقيق النصر، بما في ذلك نخبة من الطلبة قادرة على استيعاب مشروعه الحضاري التجديدي الهادف إلى فك الخناق عن التجديد الفكري[٧] باعتباره "كمنطلق النهضة الحضارية والخروج الواعي ما نسميه بالغفلة المعرفية".[٨]

ثانيًا: تنظيم التعليم في دولة الأمير

كان نشر التربية والتعليم في الجزائر على النمط الحديث من الانشغالات الهامة للأمير، لهذا فقد عمل على تنظيم مختلف مستوياته وأطواره وفق ما يلي:

- الطور الابتدائي: يستغرق أربع سنوات تقريبًا، ويتعلم الطفل خلالها مبادئ القراءة والكتابة وبعض مبادئ الحساب، ويحفظ القرآن،[٩] وقد تم بناء المدارس في المدن والكتاتيب في القرى إذ في كل قبيلة من القبائل كانت هناك خيمة تدعى الشريعة يشرف عليها مؤدب يختاره سكانها.[١٠] استعان الأمير في هذا الطور بالزوايا خاصةً وعمل على تطويرها وتزويدها بكل ما تحتاج إليه من أسباب المعرفة ووسائلها، سواء تعلق الأمر بالمعلمين أو الفقهاء أو الكتب والمراجع، وذلك لأنها كانت الشبكة التربوية الوحيدة المتاحة آنذاك لمواجهة متطلبات المرحلة.[١١]

- الطور الثانوي: ويطلق عليه بعض الدارسين الطور الإكمالي[١٢]، إذ عندما يتفوق التلاميذ وتظهر عليهم بوادر النبوغ، ينتقلون إلى هذا الطور، حيث يواصلون تعليمهم مجانًا في الجامع أو الزاوية أو مدرسة ملحقة بالأوقاف. وكانت الدروس تشمل النحو والتفسير[١٣] والتاريخ والإلهيات.

- التعليم العالي: حسب أديب حرب، لا يوجد هناك فصل واضح بين التعليم الثانوي والعالي، فالأستاذ الذي يدرس في هذه المرحلة يسمى عالما ويتقاضى أجره من الأوقاف، وكانت الدروس تشمل النحو والفقه والحديث والحساب والفلك والتاريخ...، ويتلقاها الطلبة إما في الزوايا أوفي الجوامع.[١٤]

ثالثا: مظاهر اهتمام الأمير بالتعليم

تظهر الأهمية الكبرى التي أعطاها الأمير عبد القادر للتعليم من خلال موقفه من العلماء والطلبة وطريقة تنظيمه لهذا القطاع في دولته ويتمثل ذلك فيما يلي:

- تعيينه في حكومته لناظر للأوقاف، وهو الحاج الطاهر أبوزيد، الذي كان يتولى العناية بكل ما يتصل بالأوقاف والمساجد وربط التعليم بإدارته.[١٥]

- ترتيب المعلمين وتقديم مرتبات لهم حسب درجاتهم العلمية[١٦] وكفاءة كل واحد منهم، وكان الأمير يحيطهم باحترام وتقدير متزايدين، وقد حدث أنه عفا عن أشخاص ارتكبوا جرائم كبيرة بسبب أنهم معلمون مبررًا موقفه هذا بأنه لن يقدم على إعدام شخص تطلب تكوينه سنوات طويلة[١٧]، وبذلك يعبر الأمير عن موقفه الإنساني السامي وعن سماحته إذ يعطى فرصة لمجرم للتكفير عن ذنوبه وإعادة تربيته وإدماجه من جديد في المجتمع.

- تخصيص مساعدات لطلاب العلم وشيوخ الزوايا ورعاية المؤسسات الدينية والثقافية.[١٨]

- جعل التعليم مجانيا وفي متناول الجميع، والتكفل التام بالطلبة، وحسب إدريس الجزائري فإن الأمير أول من ادخل نظام الوجبة الغذائية المدرسية[١٩] وهذا نظام جديد ومبتكر في ذلك الوقت. إضافة إلى ذلك فقد تم إعفاء الطلبة من الضرائب والمطالب الأميرية على مختلف أنواعها.[٢٠]

- إقامة مكتبة عامرة ووضعها في خدمة الطلبة والعلماء، وجمع الكتب والمخطوطات لهذا الغرض من داخل وخارج البلاد، وتزويد الزوايا والمساجد بها، وقد بلغ عدد كتب ومخطوطات مكتبة الأمير المتنقلة عند مهاجمة عاصمته الزمالة من قبل الدوق دومال حوالي ٥٠٠٠ كتاب ومخطوط.

- تشجيع المتفوقين من الطلبة وتقديم منح خاصة لهم.[٢١]

إن هذا التنظيم المحكم للمنظومة التعليمية للأمير عبد القادر والتقدير والعناية التي كان يخص بهما العلماء والطلبة لتعطينا صورة صادقة لتجربة الحداثة العربية الإسلامية في القرن التاسع عشر الميلادي في الجزائر والتي لم يعادلها في العالم العربي الإسلامي إلا تجربة محمد علي في مصر (١٨٠٥ - ١٨٤٨).[٢٢] ولو أتيحت لتجربة هذا الأخير أن تنضج في مصر ولتجربة الأمير عبد القادر أن تتواصل في الجزائر لتغير مجرى الأحداث في الوطن العربي[٢٣]، لكن القوى الاستعمارية آنذاك لم تكن لتسمح بذلك نظرًا للخطر الذي كانت تشكله التجربتان على مصالحها في المنطقة العربية.

رابعًا: النشاط التعليمي للأمير عبد القادر

مقاومة الأمير عبد القادر لم تنته باستسلامه المشروط في ٢٣ ديسمبر ١٨٤٧ بضواحي مدينة الغزوات بولاية تلمسان بحضور الحاكم العام للجزائر الدوق "دومال " ابن الملك لويس فيليب، والجنرال لاموريسيار، بل تواصلت وذلك حيثما حل، سواء عندما كان في الأسر بقصر "أمبواز" أوفي بروسه[٢٤] بتركيا أوفي دمشق بسوريا، حيث فتح الأمير "العارف" و"المعلم" جبهة جديدة للكفاح ضد الاستعمار الفرنسي وذلك بنقله المقاومة من المجال العسكري إلى المجال الثقافي والتعليمي وحقق انتصارات على مستوى الفكر والمعرفة أنست العالم هزيمته العسكرية، وأصبح نموذجًا للعالم والمثقف المسلم القادر على استيعاب حقائق عصره، والتعايش مع مختلف الديانات والثقافات في إطار التسامح الديني، والذي يستعمل أدوات كفاح جديد وفي هذا الصدد ورد في مذكرات الأمير ما يلي: "يجد (المقصود هنا الأمير) في الوزن والسجع والجناس ما يبحث عنه في السيف والرمح والبندقية من وسائل لردع المظالم واسترجاع الحقيقة المغتصبة في الميدان وبث روح العدل وإقرار السلم في العالم".[٢٥]

١/٤- نشاط الأمير التعليمي في فرنسا:

داوم الأمير عبد القادر على تدريس العلم ومواصلة مجهوده التعليمي وإفادة الطلبة من عائلته وأصحابه حتى وهو في الأسر بقصر أمبواز، إذ قرأ عليهم، حسب ابنه محمد في كتاب تحفة الزائر، "الصغرى" للسنوسي في علم الكلام ورسالة محمد بن أبي زيد القيرواني في الفقه، على مذهب الإمام مالك وغيرها من المصنفات المفيدة. وقد تأثر بذلك أخواه محمد سعيد ومصطفى وشرعا بدورهما في تقديم بعض الدروس، أفادا بها كثيرًا طلابهم، إذ قاما في حلقاتهم الدراسية بقراءة "صحيح البخاري" وكتاب "الشفاء" للإمام عياض.[٢٦]

إن هذا النشاط التعليمي الواسع للأمير وهو في الأسر ،كان يعكس معنوياته العالية وقوة إرادته رغم الظروف الصعبة التي كان يجتازها وهو محروم من حريته، كما أن ذلك يؤكد تصور وإيمان الأمير بأن المقاومة ليست بالضرورة بالسلاح والبارود بل هناك أشكال أخرى للصمود والمقاومة، ومجالات وساحات أخرى لمواجهة الاستعمار من بينها المجال الثقافي والتعليمي، ولهذا أثر عنه أنه بعد الانتهاء من تعليم أحد أبنائه، قال: "هذه آخر بندقية بقيت لي".[٢٧] لكن رغم اشتغال الأمير بتقديم الدروس وتنشيط حلقات لهذا الغرض، فإنه كان يشعر بالضجر والعزلة قام باختيار الشيخ محمد الشاذلي القسنطيني لمؤانسته ومجالسته، فانتقل هذا الأخير إلى أمبواز حيث استأنس الأمير بالشيخ وبعلمه. [٢٨]

وبعد إطلاق سراحه من قبل نابوليون الثالث[٢٩] سنة ١٨٥٢، واصل الأمير نشاطه الثقافي والفكري حيث أنه أثناء زيارته لمدينة باريس اجتمع بالعلماء الفرنسيين وناظرهم وتناقش معهم في مختلف المسائل العلمية والفكرية وعبر عن روح تسامح عالية وإيمان قوي بإمكانية تعايش الديانات والعقائد المختلفة، ثم زار دار الطباعة الأميرية الفرنسية واطلع على مختلف مراحل

عملها.[٣٠] وعبر عم إعجابه الكبير لهذا الإنجاز الحضاري لهذا سأله بعض الأعيان عما رآه في باريس، رد عليهم بقوله: "بالأمس رأيت صناعة المدافع التي تهدم بها الحصون والقلاع، وفي هذا اليوم، رأيت الحروف التي تغلب بها أسر الملوك وتخرب دولهم.." ولما اقترب موعد رحيل الأمير إلى بروسه قام بزيارة وداع واستئذان للإمبراطور نابليون الثالث استقبله بحفاوة وأخبره بتفاصيل المرتب الشهري الذي خصصته فرنسا له من خزينة الدولة ثم أهداه سيفًا ثمينًا وقال له: "أنا على يقين بأنك لن تجرده على فرنسا.."، فأجابه الأمير إجابة بليغة تعبر عن استجابته لمتطلبات المرحلة وضرورة تغيير وسائل الكفاح: "إنني الآن ممَنْ يستعمل العلم لا ممَنْ يستعمل السيف".[٣١]

٢/٤- نشاط الأمير التعليمي في بروسه:

بعد إطلاق سراحه على يد نابليون الثالث سنة ١٨٥٢م، وانتقال الأمير عبد القادر إلى الأستانة التي دخلها سنة (١٢٦٩هـ/ ١٨٥٣م)[٣٢] والتقى فيها بالسلطان عبد المجيد و"الصدر الأعظم" مصطفى رشيد باشا، شيخ الإسلام عارف حكمة بك ، ثم أدى زيارة مجاملة للسفير الفرنسي الماركيز "دولا فاييت"،[٣٣] حيثما ذهب الأمير كان الناس يزدحمون لمشاهدته، وتقديم التحية له سواء في الطرقات أو في رحاب منازل الوزراء والأعيان، كما تنقل كثير من المهاجرين الجزائريين من تونس ومصر والحجاز والشام... إلى بروسه لرؤيته ومن بينهم الشيخ يوسف بدر الدين المغربي المقيم في دمشق.

عند استقراره ببروسه واصل الأمير نشاطه التعليمي والتربوي، إذ كان يقضي أيامه هناك، حسب تشرشل في تربية وتعليم أبنائه وفي الدروس التي كان يقدمها في المسجد، وفي دراسته ومطالعاته الشخصية والعبادة،[٣٤] وهذا ما يؤكده ابنه محمد حيث يقول "وكان رضي الله عنه يصلي الصلوات الخمس، في الجامع القريب من الدار المعروف بجامع العرب، ويقرأ فيه الدروس، فقرأنا عليه ألفية ابن مالك بشرح المكودي و"السنوسية " شرح المصنف والإسياغوجي "للفتاوى".[٣٥] إضافة إلى ذلك كان الأمير يواصل التربوي مع أبنائه حتى في المنزل العائلي وذلك بانتقاء مجموعة من الكتب التي يقرأها عليهم وذلك مثل كتاب "الإبريز في مناقب سيدي عبد العزيز الدباغ".[٣٦]

٣/٤- نشاط الأمير التعليمي في دمشق:

بعد استئذانه السلطان العثماني، غادر الأمير عبد القادر بروسه سنة ١٨٥٥ متوجهًا إلى سوريا حيث استقر في مدينة دمشق، حيث شرع في تقديم الدروس بالمسجد الأموي[٣٧] وبالمدرسة الأشرفية[٣٨] المعروفة بدار الحديث النووية، وذلك بعد تسوية النزاع الذي كان بين الشيخ يوسف بدر الدين المغربي، مسير المدرسة، وبين أحد الرعايا الأوروبيين والذي استولى على الدار التابعة للمدرسة وجزءً من مسجدها، بغرض تحويلهما إلى خمارة. لكن بعد تدخل الأمير عبد القادر، بطلب من الشيخ يوسف بدر الدين، وبفعل الغيرة على الدين والحمية الإسلامية واستدعى الرعية الأوروبية إلى منزله واشترى منه الدار وأوقفها على الشيخ يوسف وورثته من بعده سنة ١٨٧٢ هـ، ثم تكفل بترميم المسجد والمدرسة على نفقته.[٣٩]

بعد الانتهاء من أعمال الترميم والإصلاح، التحق الأمير بالمدرسة وشرع في تقديم دروسه بها سنة ١٢٧٤ هـ "بصحيح البخاري" وذلك بحضور الشيخ يوسف بدر الدين، وتم تحديد موعدها ما بين صلاتي الظهر والعصر، لقد نالت هذه الدروس شهرة كبيرة في سوريا مما جعل كثيرًا من العلماء والطلبة يحضرونها.[٤٠] لم يبق نشاط الأمير التعليمي منحصرًا في المدرسة الأشرفية بل وسع مجاله ليشمل" المدرسة الجقمقية" والتي درس بها كتاب "الإتقان في علوم القرآن" للإمام السيوطي، وكتاب "الإبريز في مناقب سيدي عبد العزيز" للسيد أحمد المبارك، ثم كتاب "الشفاء" للقاضي عياض[٤١]، و"صحيح مسلم". لقد كان الإقبال على دروس الأمير المسجدية كبيرًا لدرجة أنه بعد رجوعه من رحلة إلى الحجاز قام بفتح منزله لطلبة العلم وخصص لهم وقتًا محددًا يقدم فيه الدروس.[٤٢]

خامسًا: مكتبة الأمير ودورها التربوي

لقد كان الأمير عبد القادر مولعًا بالمطالعة وجمع الكتب واقتنائها مهما كان ثمنها أو مكان وجودها، ولهذا كانت مطالعتها من أهم الأنشطة التي يتفرغ لها بعد أداء الصلاة والذكر، وكان يطالع بالدرجة الأولى الكتب ذات الطابع الديني وعلى رأسها القرآن[٤٣]، وكانت خيمته لا تخلو من الكتب أو المخطوطات النفيسة، ويشير إلى ذلك أدريان بيربروجير عند زيارته للأمير في برج حمزة، حيث أن أدريان عندما دخل خيمة الأمير المسماة "بالوطاق" وجده حسب قوله "متكئًا على بعض الوسائد وعلى يساره حوالي ثلاثين مجلدًا من الكتب، وأما على يمينه فقد وضعت أسلحة فاخرة ومرصعة...وكان كبير الكتّاب أو "الخوجات "عن يمين الأمير وأحد الشواش عن يساره".[٤٤]

وقد كانت فرحة الأمير كبيرة عندما أهداه بير بروجير أحد الكتب النفيسة حيث يضيف تلك الفرحة "فيما يخصني قدمت إليه (أي الأمير) هدية منذ أول لقاء معه، وهي نسخة عربية خطية وجميلة جدًا من كتاب "دلائل الخيرات "كانت موجودة في قسنطينة، وهي تتضمن صلوات وأدعية وغيرها من مواضيع العبادة، وقد ظهر أن الأمير عبد القادر قبلها بغبطة شديدة نظرًا للموضوعات التي عالجتها ونظرًا أيضًا إلى كونها آتية من مكتبة بن عيسى، مساعد الباي أحمد.[٤٥] ولتوفير الكتاب وتسهيل عمل المعلمين والطلبة حرص الأمير على جمع الكتب واقتنائها حيثما

وجدت، والحث على المحافظة عليها ومكافئة كل من يأتيه بكتاب أو مخطوط، كما أنه كان يدعو جنوده أثناء المعارك إلى تسليمه ما يقع بين أيديهم منها،[٤٦] ويعاقب كل من يمسكه متلبسًا بإتلافها أو تمزيقها[٤٧] أولم يحترم تعليمات الأمير في طرق التعامل مع الكتب والمخطوطات يعثر عليها أثناء الحروب. ومن شدة تعلق الأمير بالكتب واهتمامه بها أرسل بعض تلامذته حتى الأناضول وقونية[٤٨] لنسخ مخطوطات ابن عربي أستاذه الروحي الذي تأثر به.[٤٩]

كان الأمير يضع الكتب والمخطوطات التي يجمعها في المساجد والزوايا تحت تصرف العلماء والطلبة في انتظار إنهاء بناء مكتبته بتاكدمت، عاصمته الجديدة[٥٠]، والتي شرع في بنائها سنة ١٨٣٦ بمكان له رمزيته التاريخية. إذ كان الأمير يهدف من وراء اختيار الموقع إحياء العاصمة السياسية والفكرية والدينية القديمة للجزائر[٥١]، لكن تجدد القتال مع الفرنسيين، بعد إقدامهم على خرق معاهدة تافنة سنة ١٨٣٩، جعل أشغال البناء تتوقف ويتوقف معها مشروع المكتبة. اضطر الأمير عبد القادر أمام تحرشات الفرنسيين وعدم شعوره بالأمن والطمأنينة في إقاماته الرسمية إلى بناء عاصمة متنقلة وهي الزمالة، يمكن تفكيكها ونقلها إلى أي مكان وإعادة تركيبها[٥٢]، وبذلك أصبحت المكتبة متنقلة مع الزمالة إلى غاية ١٥ مايو ١٨٤٣، عندما هاجمها الجيش الفرنسي بقيادة الدوق دومال[٥٣]، واستولى على ما بها، بما في ذلك المكتبة التي تم نهب وبعثرت كتبها ومخطوطاتها وإتلاف قسم منها، وقد قدر عددها آنذاك بحوالي خمسة آلاف كتاب ومخطوط.[٥٤]

لقد تألم الأمير عبد القادر كثيرًا لذلك وهو يقتفي أثر الجيش الفرنسي، ويجمع البقايا المتناثرة للكتب الممزقة[٥٥]. إن قراءة متمعنة في اهتمامه بعالم الكتاب والمكتبات ليدرك مدى وعيه العميق بأهمية تأسيس مكتبة عمومية بالنسبة لدولة من الدول، باعتبارها تشكل الأداة الكفيلة بالمحافظة على الذاكرة الجماعية للشعب الجزائري وتراثه، لهذا اعتبر عبد الحميد بن أشنهو بأن الجزائر لم تفقد استقلالها يوم ٠٥ جويلية ١٨٣٠ عند احتلال مدينة الجزائر، ولا يوم ٢٣ ديسمبر ١٨٤٧ عند استسلام الأمير المشروط، ولكن في يوم ١٥ مايو ١٨٤٣ عند سقوط آخر عاصمة للبلاد، واستيلاء الفرنسيين للمرة الثانية على الخزينة العامة والأرشيف الوطني[٥٦]. وأمام خسارة بهذا الحجم لم يتردد يحي بوعزيز في تشبيه ما فعله جنود الدوق دومال بمكتبة الأمير بما فعله المغول بمكتبة بغداد سنة ١٢٥٨، وما فعله الإسبان بالمكتبات الإسلامية في الأندلس بعد سقوط آخر إمارة إسلامية بها وهي غرناطة، وما فعلته منظمة الجيش السري (O.A.S) بمكتبة جامعة الجزائر في جوان ١٩٦٢ بعدما أقدمت على إضرام النيران فيها.[٥٧]

خاتمة

خلاصة القول؛ أن تجربة الأمير وانجازاته في ميدان الثقافة والتعليم لا تقل أهمية عن انجازاته في الميدانين العسكري والسياسي، إذ أن فتح جبهة مقاومة جديدة على الاستعمار لم تتوقف إلا بمماته، وأسس لتجربة رائدة في ميدان التعليم لمواجهة السياسة الاستعمارية في هذا المجال، وقد أبدع الأمير وأجاد في تسييره لهذا القطاع الحساس واندرج تنظيمه هذا في إطار حداثي وتصور إصلاحي شامل وذلك من خلال:

- العناية التي أحاط بها المعلمين والطلبة والتكفل باحتياجات الطلبة ومتطلبات تمدرسهم بغرض تشجيعهم على التحصيل العلمي.
- تطويره للإرث العثماني في ميدان التعليم وذلك بتدخل الدولة في تنظيمه وتسييره بعد أن كان يترك للمبادرة الشخصية للسكان.
- امتلاك الأمير لمفهوم حديث للمكتبة كمؤسسة لها وظيفتها في المجتمع والدولة باعتبارها مؤسسة حيوية حافظة للذاكرة الجماعية للشعب الجزائري ولتراثه الأدبي والفكري ....، كما أنه عن طريق اقتناء وشراء الكتب والحث على المحافظة عليها ووضعها في الزوايا والمساجد تحت تصرف العلماء والطلبة كان يشجع على المطالعة باعتبارها سلوكًا حضاريًا، وكان يعطي المثل في هذا المجال باعتباره كان يكثر من المطالعة.

إضافةً إلى ذلك؛ فإن تجربة الأمير في ميدان التعليم رغم قصر مدتها وانشغاله بالحروب والمعارك ضد الاستعمار الفرنسي، فقد أعطت نتائج ايجابية تمثلت في إقبال السكان على إرسال أبنائهم إلى المدارس، هذا فضلاً عن أنها عبرت عن وعي حقيقي بمخاطر السياسة الاستعمارية في الميدان الثقافي وضرورة مقاومتها على مختلف الجبهات بما في ذلك الجبهة الثقافية والفكرية. وأخيرًا يمكننا القول؛ بأن الجانب الثقافي والفكري من تاريخ الأمير عبد القادر ما زال في حاجة إلى دراسة وبحث، "فالورشة الأميرية" لا تزال في هذا المجال قادرة على إلهام الباحثين والدارسين بمواضيعها العديدة والمتنوعة وذلك لعشرات السنين.

الهَوامِشُ:

(١) **مذكرات الأمير عبد القادر**، تحقيق محمد الصغير بناني، محفوظ سماتي، ومحمد الصالح الحبون، ط٧، شركة دار الأمة، الجزائر، ٢٠١٠، ص ٤٩.

(٢) صلاح أحمد، الأمير عبد القادر، **المتصوف والمصلح**، منشورات دار الأديب، وهران، ٢٠٠٧، ص ٢٥.

(٣) نفسه، ص ٢٦.

(٤) بوعزيز يحي، **الأمير عبد القادر الجزائري رائد الكفاح الجزائري**، الدار العربية للكتاب والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٨٣، ص ١٤٠.

(٥) جورج الراعي، **الدين والدولة في الجزائر، من الأمير عبد القادر ... إلى عبد القادر**، دار القصبة للنشر، الجزائر، ٢٠٠٨، ص٧٥.

(٦) محمد الطيبي، **الجزائر عشية الغزو الإحتلالي، دراسة في الذهنيات والبنيات والمآلات**، ط١، ابن النديم للنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٩، ص ٢٣٤.

(٧) طيبي محمد، **الرواية المعرفية والتدبير السياسي، قراءة في الإرهاصات الجيوسياسية للفكر الأميري**، ضمن كتاب **تبر الخواطر في فكر الأمير عبد القادر**، تأليف جماعي، ط١، دار القدس العربي، الجزائر، ٢٠٠٠، ص ٦١.

(٨) المرجع نفسه، ص ٦٢.

(٩) أديب حرب، **التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر الجزائري (١٨٠٨-١٨٤٧)**، ج٢، ط٣، دار الرائد للكتاب، الجزائر، ٢٠٠٥، ص ٧٠.

(١٠) أديب حرب، المرجع السابق، ص ٧٠.

(١١) جورج الراعي، المرجع السابق، ص ٧٥.

(١٢) صلاح أحمد، المرجع السابق، ص ٨٨.

(١٣) أديب حرب، المرجع السابق، ص ٧١.

(١٤) المرجع نفسه، ص ٧١.

(١٥) رابح بونار، "**نظام الحكم في إمارة الأمير عبد القادر**"، مجلة الأصالة، العدد ٢٣، جانفي، فيفري، ١٩٧٥، ص ٤٥.

(١٦) المرجع نفسه، ص ٤٩.

(17) Charles Henry Churchill, la vie d'Abd El-Kader, Editions ANEP, Alger,2009, P 117.

(١٨) جورج الراعي، المرجع السابق، ص ٤٣.

(١٩) "**استجواب مع إدريس الجزائري**"، جريدة الحياة ، عدد ٨-١٢-١٩٩١، ذكره جورج الراعي، المرجع السابق، ص٤٣.

(٢٠) محمد العربي الزبيري، **الكفاح المسلح في عهد الأمير عبد القادر**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع والمؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، ١٩٨٢، ص١٢٨.

(٢١) يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص١٤١.

(٢٢) أحمد عبد الحليم عطية، **الأمير عبد القادر الجزائري في مصر**، ضمن كتاب **تبر الخواطر في فكر الأمير عبد القادر**، مرجع سابق، ص ٢١٥.

(٢٣) جورج الراعي، المرجع السابق، ص ٧٥.

(٢٤) تعتبر بروسه رابع أكبر مدن تركيا تقع شمال غرب البلاد بين مدينتين استنبول وأنقرة، فتحها السلطان اوران غازي في ١٣٢٦م وأصبحت أول عاصمة للإمبراطورية العثمانية، تعرضت لتدمير بعد غزو المغول لها بقيادة تيمور لنك عام ١٤٠٢م، وبعد استرجاعها من قبل العثمانيين نقلوا عاصمتهم منها إلى "أدرنة" ثم إلى "استنبول " سنة ١٤٥٣م، وبذلك تراجعت أهميتها نسبيًا. المدينة غنية بالعديد من المعالم الحضارية والمعمارية والمباني الأثرية مثل: الجامع الكبير، جامع مراد الأول، والجامع الأخضر إلى جانب بعض الأضرحة ومدافن سلاطين آل عثمان وأسرهم.

(٢٥) **مذكرات الأمير عبد القادر**، مصدر سابق، ص٢٩.

(٢٦) محمد بن عبد القادر الجزائري، **تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر**، شرح وتعليق ممدوح حقي، ج٢، الجزائر، ٢٠٠٧، ص ٢٦.

(٢٧) جورج الراعي، مرجع سابق، ص ٧٦.

(٢٨) محمد بن عبد القادر الجزائري، مصدر سابق، ص٢٨.

(٢٩) **نابوليون الثالث (١٨٠٨-١٨٧٨)**: شغل منصب إمبراطور فرنسا في ديسمبر ١٨٥٢ تحت اسم نابوليون الثالث، تميزت سياسته في الجزائر لمحاولة التقرب من السكان وتبنى القانون المشيخي (سيناتوسكونسيلت)، كما تبنى سياسة توسعية في أوروبا، فخاض عدة حروب ضد النمسا وألمانيا، ولكنه انهزم في معركة سودان في سبتمبر ١٨٧٠، وسقط أسيرًا بين أيدي الألمان، فانهارت إمبراطوريته، وبعد إطلاق سراحه، استقر في إنجلترا حيث بقي فيها إلى غاية وفاته سنة ١٨٧٣. يُنظر

Petit Larousse, librairie Larousse, Paris,1980, P1432 .

(٣٠) محمد بن عبد القادر الجزائري، مصدر سابق، ص ٦٦.

(٣١) المرجع نفسه، ص٦٧.

(٣٢) المرجع نفسه، ص٧٧.

(٣٣) المرجع نفسه، ص٧٨.

(34) Charles Henry Churchill, Op. Cit., P. 314.

(٣٥) **محمد بن عبد القادر الجزائري**، المصدر السابق، ص٨٣.

(٣٦) **محمد بن عبد القادر**، المصدر السابق، ص٨٣.

(٣٧) المسجد الذي أمر بتشييده الوليد بن عبد الملك في دمشق انطلاقًا من سنة ٧٠٥م، ويُعدّ رابع أشهر المساجد الإسلامية بعد حرمي مكة والمدينة والمسجد الأقصى، كما يُعَدّ واحدًا من أهم المساجد الإسلامية، حيث حشد له الوليد صُناعًا من الفرس والهنود، ومائة فنان يوناني بعثهم إمبراطور بيزنطة للمشاركة في تزيينه. دخله الصليبيون سنة ١٢٦٠م بعد احتلالهم لدمشق بتحالف مع المغول، ولكن تمكن المماليك بقيادة قطز وبيبرس من استرجاع المدينة وإعادة ترميم المسجد مما سمح باستعادته لمكانته العلمية والدينية، حيث كان ابن تيمية يقوم فيه بتدريس تفسير القرآن، وعند سيطرة العثمانيين على مدينة دمشق بعد انتصارهم على المماليك في معركة مرج دابق ١٥١٦م أدى به السلطان سليم الأول صلاة الجمعة، يُنظر: القاضي حمد بن أحمد كنعان، **تاريخ الدولة الأموية: خلاصة تاريخ ابن كثير**، مؤسسة المعارف، بيروت، ١٩٩٧.

(38) Bruno Etienne, Abdelkader isthme des isthmes, Editon SEDIA, Alger 2010, 8.

(٣٩) محمد بن عبد القادر الجزائري، المصدر السابق، ص ١١٨.

(٤٠) محمد بن عبد القادر الجزائري، مصدر سابق ، ص ١١٩.

(٤١) المرجع نفسه، ص ١٢٣.

(٤٢) المرجع نفسه، ص ١٢٤.

(٤٣) صلاح أحمد، مرجع سابق، ص ٢٧.

(٤٤) أدريان بيربروجير، **مع الأمير عبد القادر، رحلة وفد فرنسي لمقابلة الأمير في البويرة (١٨٣٧-١٨٣٨)**، ترجمة أبو القاسم سعد الله، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، الجزائر، ٢٠١٠، ص ٦٩-٧٠.

(٤٥) أدريان بيربروجير، مصدر سابق، ص١١٣.

(46) Bruno Etienne, Op. Cit., P 118.

(٤٧) عبد القادر بوطالب، **الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية من الأمير عبد القادر إلى حرب التحرير**، دار دحلب، الجزائر، ٢٠٠٩، ص ١٠٤.

(٤٨) من مدن تركيا الهامة، تقع في وسط جنوب الأناضول، بلغت ذروة مجدها عندما كانت عاصمة لسلاجقة وذلك قبل الغزو المغولي لها، شكلت مركزًا سياسيًا واقتصاديًا هامًا في الدولة البيزنطية، ثم أصبحت عاصمة السلاجقة

الأتراك في أواخر الدولة العباسية وفي العهد المملوكي، تشتهر بموقعها الإستراتيجي وآثارها التاريخية ومساجدها العريقة مثل: مسجد علاء الدين الذي شيد سنة (٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م)، وبها ضريح الشاعر الصوفي جلال الدين الرومي المتوفى سنة ١٢٧٣م.

(49) Bruno Etienne, Op.cit., P 117.

(50) Ibid., P 118.

(51) Bruno Etienne, Op.cit., P ١٢٢.

(52) A.Benachenhou, l'état algérien en 1830, ses institutions sous Abdelkader, ENAG édition, Alger, 2009, P 79.

(٥٣) **الدوق دومال**، هو الإبن التاسع للملك لويس فيليب، من مواليد ١٦. ٠١. ١٨٢٢، لعب دورًا هامًا في الحياة السياسية والعسكرية في فرنسا، إذا كان يحتل رتبة جنرال في الجيش الفرنسي، وشغل منصب حاكم عام للجزائر في شهر سبتمبر ١٨٤٧، وحضر بهذه الصفة مراسيم استسلام الأمير المشروط في ٢٣ ديسمبر ١٨٤٧، لكن بعد ثورة ١٨٤٨ في فرنسا اضطر إلى العيش في المنفى بإنجلترا وذلك لمدة ٢٣ سنة، يُنظر.

Petit Larousse, Op.cit., P1044

(٥٤) أديب حرب، المرجع السابق، ص ٧١.

(55) Charles André Julien, histoire de l'Algérie contemporaine, la conquête et les débuts de la colonisation (1827-1871), Presses universitaires de France, Paris, 1964, P 181.

(56) A. Benachenhou, Op. Cit., P 138.

(٥٧) يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص ١٤٢.